ملمح الأمل في الشعر الليبي الحديث

د / فتحي رمضان القراضي ـ جامعة الزاوية ـ كلية الآداب / صبراتة

تمهيد :

الأمل موضوع قوي الصلة بحياة عامة الناس على وجه البسيطة حتى أنه لايكاد ينفصل عنها البتة ؛ فما بالك بالشاعر الذي ينظر من خلاله إلى آفاق أوسع ،وأطر أرحب يستطيع أن يحقق فيها ذاته بعيدا عن القيود سياسية كانت أو اجتماعية أو غير ذلك . وبهذا المعنى فالأمل لايخرج عن كونه '' نزعة إنسانية عميقة الجذور في نفس الشاعر تؤكد أنه قادر كل القدرة على أن يعيش الحياة التي يريدها في إطار من الأمل'' (1)

لقد تغنى شعراء ليبيا بالأمل الذي مثل لهم الخلاص من كل أشكال الاستعباد ، وقد طغت على الساحة الشعرية في ليبيا آمال عدة منها :

1 – الاستقلال

مثل استقلال ليبيا آملا عاش عليه الشعراء وغيرهم من أبناء الشعب الليبي ؛ لما فيه من حرية وسعادة غير أن هذا الأمل الذي راود شعراء ليبيا منذ أن وطئت أقدام الإيطاليين أرض البلاد جاء بعد عسر ،وفترة مخاض طويلة عانى فيها الليبيون الأمرَّين . وما أن أعلن استقلال ليبيا حتى هلل الشعراء فرحين مستبشرين وفي مقدمتهم رفيق الذي رأى في يوم الاستقلال عيدا بكل ما تعنيه الكلمة من بهجة وسعادة وأن الأمل قد تحقق ، وأن الأعناق قد تحررت حيث يقول :

عيدٌ عليه مهابةٌ وجـلالُ عـيدٌ وحَسبُك أنه استقلالُ
يومٌ عليه من السعادة بهجةٌ وعليه من نور السرور جَمالُ
يـومٌ سعيدٌ فيه نالت أمـةٌ مُلكا تمـجد ذكـره الأجيـالُ
واستقبلَ التاريخُ مظهرَ دولة فأهلَّ في برج السعود هلالُ
وبدأ يسير إلى التكامل بدرُها فتحققت بظهوره الآمـالُ
وتحـررت أعـناقُنا فتـنفست أرواحُـنا وتبسَّم الإقـبالُ (2)

وتطغى الفرحة على الشاعر أحمد قنابة فنراه يطلب من الشعب الليبي أن يصون استقلاله ، ويحافظ عليه ، وألا يفرط فيه وذلك في قوله :

صُن أيُّها الشعبُ النبيل الغالي ... دُنيا السَّلامِ وعهدَ الاستقلالِ

وانعم بِعهدِ العزِّ في حريَّةٍ ... وانزع عن العهدِ القديم البالي

وانشر على الدنيا صحائفَ مجدِنا ... فالمجدُ في التاريخ رأسُ المالِ

وأربا بِنفسِك أن تُضـيَّع فرصةٍ ... فيها تُــؤمِّنُ مطمحَ الأجيالِ

قد شطَّ الاستعمار عنك فعهده ... عهدُ الهوى والبغي والإذلالِ

وحد صُفوفكَ إن أردت تقدما ... نحو الأماني الغرِّ والآمالِ

ما في صُفوفِكَ ثُلمةٌ أو فجوةٌ ... خذ أصوبَ الأنباءِ والأقوالِ

فزانُ منك ومنك أيضا برقةُ ... أُختا طرابلس بلا إشكالِ (3)

إن أبيات قنابة هذه تجسد واقع الليبيين اليوم ، فالليبيون مدعوون بكل قوة إلى توحيد الصف والسير إلى الأمام لبناء الوطن ، وتحقيق الأماني والآمال ؛ وذلك بأن يترفعوا عن صغائر الأمور بعد أن تحررت البلاد من الحكم الشمولي الذي استولى عليها لأكثر من أربعة عقود . وقد فطن شعراء ليبيا إلى أن بقاءها – بعد استقلالها – مقسمة إلى ولايات ليس في صالح البلاد لذلك نادوا بأعلى أصواتهم بضرورة وحدته التي تمت في عام 1963م عندما أصدر الملك إدريس السنوسي – رحمه الله – قراره القاضي بتحول ليبيا من النظام الاتحادي (الفيدرالي) إلى النظام الوحدوي وفي هذا المعنى يقول الشاعر عبدربَّه الغناي :

الله أكبرُ ما أسمى مَعانِيها ... بُوركتِ يا وحدة عزَّت مَبانِيها

يا منتهى أملٍ للشَّعبِ ينشدهُ ... وخير ما لبلادي من أمانيها

سَجدتُ لله إكبارا لِنعمتهِ ... إذ ليس من نعمةٍ عندي تدانيها (4)

وقد غنى معظم شعراء ليبيا للاستقلال الأمل الذي مثَّل لهم النصر ، والحرية ، والعزَّة ، والكرامة ، وعودة الوطن إليهم وعودتهم إليه . وإني لأستغرب كيف

ينادي بعض الليبيين اليوم بتقطيع أواصر هذا الوطن ، وتقسيمه في وقت نحن في أمس الحاجة فيه إلى اللحمة التي فيها قوتنا وقوة ليبيا ومنعتها .

2 – الجامعة العربية

تأسست الجامعة العربية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وقد رأى فيها الشعراء أملا في تقريب يوم الخلاص ، والوصول إلى الوحدة العربية الشاملة فتغنى بها الشعراء في كل قطر من أقطار الوطن العربي وكان لزاما على الشاعر الليبي ان يشارك إخوانه العرب في فرحتهم بميلاد جامعتهم ومن الشعراء الذين تغنوا بهذا الأمل الشاعر إبراهيم الأسطى عمر الذي كبَّر الله متسائلا عما جعل العرب في طرب وعما جدَّ في الشرق ، وعن السبب الذي كان وراء هذه الأعياد التي عمَّت العواصم العربية والشاعر لا شك أنه يعرف السبب ؛ إنه توقيع ميثاق الجامعة العربية إذ يقول :

الله أكبر والتكبيرُ من دأبي إذا اعتراني ما يدعو إلى العجبِ

قُل لي بِربِّك ما هذا النداء وما هذا الذي جعلَ الأقوامَ في طربِ

ما جدَّ في الشّرق هل أرى عجبا في كلِّ عاصمةٍ عيدٌ بلا سببِ

دارُ السّلام بها الأعلامُ خافقة وجلَّقُ ظهرت في ثوبِهَا القشبِ

ومصرُ أحسبها والبشرُ يغمُرها مجموعةً نُسِّقت من لامعِ الشُّهبِ

وعدنُ في حسنِها صارت كجنتِهَا ما قيل عن جنَّةٍ في أشرف الكتبِ

أما الرياضُ فقد حاكت بِبهجتِها نَظير بَهجتهَا في سائر الحُقبِ

عمَّانُ يا حسنها والعيدُ مزدوج والنَّهرُ من طربٍ في شبه مُضطربِ

والقومُ في كلِّ قطرٍ للعُروبةِ قد عَلاهُم البشرُ بعد الغمِّ والنَّصبِ (5)

إلى أن بقول محددا سبب الفرحة التي عمَّت الأقطار العربية من المحيط إلى الخليج والذي أشرنا إلى أنه يعرفه ، وإنما عمد الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليوحي لنا بأهمية هذا الحدث الذي يتناوله لافتا أنظار العرب إلى ضرورة تحقيق أمالهم من خلال هذا الكيان رامزا بضاد لغتهم التي هي عماد البناء :

اللهُ أكبرُ هذا اليوم للعربِ عيدٌ لوحدَتِهم في القَصدِ والأدبِ

عيدٌ به وقَّعوا مِيثاقَ جامعةٍ تُوحِّدُ العربَ في قصدٍ وفي طلبِ

وشيَّدوا ركنها العالي وغَيْتَهم توحيدُ " ضاد" ونعمَ الرمزُ في نسبِ

وحققوا أملا كم كان ينشدُه أمثالُ فيصلَ ذي مُلك وذي نسبِ (6)

وتأتي الذكرى الثانية لتأسيس الجامعة العربية وفيها يتغنى الشاعر أحمد قنابة مخلدا هذا الحدث هاتفا بهذه الجامعة الفتية التي جمعت العرب وأكدت انتسابهم إلى أم وأب واحد :

باسمِ الكِنانةِ والعُروبةِ والأدب حيِّ الحمى واهتف بجامعةِ العرب

شرقيةٌ في قدسِها عربيةٌ صاغت بَنِيها الغُرَّ من أُمٍ وأب

عامان قد عدَّوا وهذا ثالثٌ يَعدو وفي أطوائهِ كمٌ من العجب (7)

وللشاعر أحمد الفقيه حسن قصيدة بعنوان " الجامعة العربية " نظمها في الذكرى الثالثة لانبعاث الجامعة مصورا فيها هذا الحدث الكبير ، وما سيؤول إليه حال الوطن العربي من بعده منها قوله:

لمصرَ العزيزة فضلُ الكِرامِ ففيها نمت وبدت دارُها

فأهلُ العراقِ وأهلُ الشامِ وأهلُ الجزيرة أنصارها

وسارت طرابلسُ للأمام تؤيدها اليوم أحرارُها (8)

ورأى الشاعر عبدالغني البشتي في الجامعة العربية قوة للعرب فانبرى للرد على المتقولين الذين يقولون إن الجامعة ولدت ميتة ، وإنه لن يكون لها صوت مسموع نقرأ ذلك في قوله :

أ جامعةُ العربِ الحبيبة إنَّنا بنو الموتِ لانخشاه إن جاء يرصدُ

ولكنَّنا نخشى إذا ما فقدتِنا لعل كثيرا من ثرى العربِ يُفقدُ

يقولون من تدعو؟ أتدعو مريضةً تكادُ بها الأنفاسُ لا تتردد

كـلامٌ يـُزجيـه الـوشاةُ ومـقالـةٌ يـُرددهـا ذات الغـبي المُفنِّدُ

سيقضـى على أهلِ النِّفاق وتنمحي غِوايةُ من لم يخجلوا أن يُهودوا

فهيهات أن توهي العروبة حفنةٌ زَعانِف من كلِّ المكارمِ جُرِّدوا

(9)

وقد غنى كثير من الشعراء الليبيين غير هؤلاء للجامعة العربية الأمل الذي رأوا فيه وحدتهم العربية الشاملة التي صارت هي الأخرى أملا راود القلوب .

3 – الوحدة العربية

عانى العرب من التمزق كثيرا ، وهم يتمنون في قرارة أنفسهم أن يغيروا حالهم إلى أحسن مما هم عليه ؛ فأخذوا يبحثون عن سبيل إلى ذلك فلم يجدوا إلا الوحدة العربية التي كانت '' وما تزال أملا كبيرا يراود قلوب الملايين العربية ، فهي دائما تواقة إلى يوم تتحد فيه أجزاء الوطن العربي الكبير في دولة واحدة من المحيط إلى الخليج ؛ وذلك لكي تكون قوة اقتصادية ، وعسكرية ، وسياسية ، وحضارية قادرة على حماية استقلالها واستخلاص حقوقها من الدول الاستعمارية المحيطة بها ''(10) بيد أن الظروف تأتي دائما بعكس ما تريده الشعوب العربية المغلوبة على أمرها ولا مُراء في أن الوحدة العربية ، ونبذ التفرقة ، ولم الشمل العربي قد غدا أملا عند الشعراء الليبيين – كما هو عند الشعراء العرب – ومن بين الشعراء المقدمين في هذا الموضوع الشاعر أحمد الشارف الذي كان '' مهيئا تماما لقبول هذا التطور الجديد في الرابطة العربية التي دعا إليها بحرارة ؛ إذ يتحول بنا إلى الحديث عن الوحدة العربية ؛ أليست الوحدة تتويجا للرابطة العربية '' (11) من أجل ذلك نادى الشاعر بالوحدة العربية أملا في الخلاص من الذل والعبودية:

ألمَّ بنا شوقٌ يذوبُ له الصَّخر ويقضي علينا البؤسُ لو فُقد الصَّبرُ

وما شـوقُنا إلا لـوَحـدةِ أمـةٍ يُشادُ على مـرِّ الزَّمـان لها ذكـرُ

ولم نر ما يدعو إلى البؤسِ والشَّقا سوى وطنٍ فيه القطيعةُ والهجرُ

تهـافت آراءُ وأصـداءُ فتـنةٍ فلـم يخلُ منها لو تتبعها عصـرُ

ولم يخل شعبٌ من حديث مموه فظـاهره خـيرٌ وباطنه شـرُّ (12)

ويهتف الشاعر أحمد قنابة بأعلى صوته مناديا بالوحدة العربية موضحا أن لا فرق بين ليبيا ومصر ، واليمن وتونس وكل الأقطار العربية مبينا أن للوحدة مبادئ سامية لا يناقشها إلا الأحرار الذين يرفضون الخنوع نقرأ :

ليبيا العزيزةُ بنتُ الضَّاد تُربتنا وكلُّ أرضٍ تعز الضّاد تـُرضينا

ليبيا إذا لـم يك التوحيدُ غايتها عوَّضت عنها حِمى التوحيدِ برلينا

ليبيا التي لاتـزال الدَّهر واثـقـةً في شعبِ تونسَ كهفِ المستنيرينا

في مصرَ في الشَّام والأردن أخوتنا في الدِّين في العقل وشتى مساعينا

عـهدي بمـن نأوونا فـي سياستـنا هاديـنا كـانوا فصـاروا اليوم هاذينا

إنَّ الدُّخـول يقينا ضمن وحـدتِنا لا يقـتضي غـير روح الحـرِّ تأمينا

اسمـع مـبادئنا مـن كان يَـجهلُها " لا نبـتدي بالأذى مـن ليس يُؤذينا

إنَّ المـبادئ أولـى مـن يُنـاقشها حـرٌ أمـينٌ إذا مـا قـدَّس الـدِّيـنا

ليـت الشَّباب يُعيد اليوم نظرته فيما مضى ويُصافي من يُصافينا (13)

لقد وجد الشاعر الليبي نفسه مضطرا للمناداة بالوحدة العربية ؛ فهو لا يري سوى الأحداث المؤلمة والآثار السيئة التي عمت البلاد العربية ، وهو لا يستطيع إلا أن يتعامل معها '' وليس من شك في أن هذا الاتجاه في التفاعل مع الأحداث التي تقع على الأرض العربية بفصح عن مفهوم عميق ، ومعمَّق لمعنى الوحدة العربية وهو مفهوم يأخذ موقعه داخل الإحساس ، ويختلط بالوجدان ويمتزج بالكيان الإنساني '' (14) وقد مثَّل هذا الاتجاه العميق والمعمَّق في ليبيا الشاعر علي صدقي عبدالقادر في قصيدته " الشرق العربي " التي دعا فيها إلى الوحدة العربية من خلال التفاعل مع الأحداث التي مزَّقت كيان الأمة ، وأهدرت كرامتها فهاهو يخاطب الشرق العربي مبينا دوره القديم في عزِّ هذا الوطن ومجده :

أيُّها الشَّرقُ الذي أنبتنا عُربا كِراما

وجبلتَ العزَّ من طِينتنا حتى استقاما

وظفرت المجدَ تاجاً وجعلت العُربَ هاما

وعلى أوطاننا خلدَّت فخرا لا يُسامى

كلُّ هذي قد حباها الشَّرقُ للعُرب وساما

فسلاما أيُّها الشرق وشكرا واحتراما (15)

ثم يطلب الشاعر من العرب السير في طريق الوحدة العربية ؛ ليصنعوا فجرهم طارحين قيودهم مكسرين أغلالهم التي صنعها الاستعمار .ويرى الشاعر أن الوحدة إرادة الأمة ولابد أن يكون ما تريده الأمم :

فلنسر في وحدةٍ تستقبلُ الصُّبح الجديد

ونُلاقي الفجرَ فوق الأُفق يشدو بالنَّشيد

طارحين القيد والأغلال في العهد السَّعيد

حاملين العَزم والإيمان بالشَّرق العتيد

فلنعد للعربي الحرِّ تاريخ " الرشيد"

قد أردنا فليكن ما أمتي كانت تريد (16)

ويؤكد الشاعر أصالة الشعب العربي ، ووحدة أرومته وان الحدود المصطنعة لا يمكن أن تفصله ، وأنّ الوحدة قائمة لا محالة وإن لم يرد الغرب :

نحنُ إن شطَّت ديارٌ بيننا فالشَّعبُ واحد

لا حُدود تفصلُ الأمة لا تخطيط جاحد

جمعت ما بيننا الأقداسُ في الشَّرق المجاهد

فانتصبنا تحت نُور الشَّمس مشبوكي السَّواعد

نُفهم العالمَ إنَّا وحدةٌ قامت تُجالد

عنتَ الغرب الذي مازال في كِبرٍ يُعاند (17)

وهكذا يستمر أمل الوحدة يراود الشعراء في ليبيا الأمر الذي جعلهم يهتفون دائما منادين بوطن عربي واحد لا تفصله حدود ، ولا تكبل مواطنيه القيود يقول الشاعر عبدالحميد المجراب في هذا المعنى :

وطني الكبير بلا حدود

والمارِدُ العربي

قد فَكَّ القيود

وغدا مع الفجر غدا

نُلغي الحدود

لأعيش حرا لا حدود

وأُغني حرا لا قيود (18)

ولا يعدو الحقيقة من يذهب إلى أن مصر قد بذرت بذور الوحدة العربية ، واضطلعت بدور قومي بارز وهذا معنى أكده شعراء ليبيا ومنهم الشاعر عبدالمجيد القمودي الذي يقول :

مصرَ النِّضال مصر المجد مصر النَّصر

مصرَ الوفاء والإباءِ والعروبة

في برجها الشَّامخ في أهرامها

في نيلها الذي يموج بالخصوبة

في كلِّ ذرةٍ من أرضِها الحبيبة

أحكي لكم عن شَعبها المُناضل

عن جيشها الأبي عندما يقاتل (19)

الخلاصة :

إنَّ ما قاله الشعراء الليبيون في الوحدة العربية ، والدعوة إليها باعتبارها السبيل الوحيدة لانتصار العرب أكثر من أن يحصى في مثل هذه الدراسة .

وأخيرا تسعى هذه الدراسة لإثبات مشاركة الشاعر الليبي أخاه العربي في التغني بالأمل إحساسا منه بمعاناة أبناء أمته ، وإيمانا منه بأن الحياة بلا أمل موت حقيقي ، وأن التغني بالأمل على مستوى الاستقلال ، والجامعة العربية ، والوحدة العربية أعطى فرصة للشاعر ليعبر من خلالها عما يحسه تجاه الآخرين .

الهوامش

1 – النزعة الإنسانية في الشعر العربي الفلسطيني المعاصر ، محمود عبدالرحيم الخالدي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الفاتح ، كلية اللغات ، قسم اللغة العربية ، غير منشورة ، 1995م ، ص : 86 .

2 – ديوان شاعر الوطن الكبير ، الفترتان الرابعة والأخيرة ،المطبعة الأهلية ، بنغازي ،1965م، ص : 231 ،232 .

3 – أحمد قنابة دراسة وديوان ، جمع وتحقيق : الصيد أبوديب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1968م ، ص : 83 .

4 – ديوان الشروق ، عبدربه الغنّاي ، منشورات مكتبة الأندلس ، بنغازي ، ط 1 ، 1967م ، ص : 26 ، 27 .

5 – إبراهيم الأسطى عمر شاعر من ليبيا ، تحقيق : علي مصطفى المصراتي ، مكتبة الفكر ، طرابلس ، ط2 ، 1972م ، ص : 207 .

6 – المصدر السابق ، ص : 208.

7 – أحمد قنابة دراسة وديوان ، مصدر سابق ، ص : 110.

8 – ديوان أحمد الفقيه حسن ، مطابع وزارة الإعلام والثقافة ، طرابلس ، 1966م ، ص : 98 ، 99 .

9 – نقلا عن كتاب : الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث ، محمد الصادق عفيفي ، القاهرة ، ط1 ، 1983م ، ص : 352 . 353 .

10 – النزعة القومية في الشعر الليبي منذ الاحتلال الإيطالي إلى الوقت الحاضر ، طاهر عمران عبدالله ، رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، غير منشورة ، 1974م ، ص : 169 .

11 – إرهاصات الوحدة العربية في الشعر الليبي المعاصر ، نجم الدين غالب الكيب مجلة الفصول الأربعة ، العدد 26 ، (أكتوبر 1984م) ، ص: 130 .

12 – أحمد الشارف دراسة وديوان ، علي مصطفى المصراتي ، المكتب التجاري ، بيروت ، ط1 ، 1963م ، ص : 54 .

13 – أحمد قنابة دراسة وديوان ، مصدر سابق ، ص : 127 .

14 – إرهاصات الوحدة العربية في الشعر الليبي المعاصر ، مصدر سابق ، ص : 154 .

15 – ديوان زغاريد ومطر بالفجر ، علي صدقي عبدالقادر ، مطابع وزارة الإعلام والثقافة ، طرابلس ، 1966م ، ص : 75 .

16 – المصدر السابق ، ص : 76 .

17 – المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

18 – ديوان رياح المدينة ، عبدالحميد المجراب ، دار القومية العربية للثقافة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1961م ، ص : 36 .

19 – ديوان أغنية البحر ، عبدالمجيد القمودي صالح ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، 1984م ، ص : 66